محمد غيث الحاج حسين

«الثقافة والإمبريالية»: القمع والمقاومة والتّيه

إدوارد سعيد في **الثقافة والامبريالية*** يقوم، وبثاقبيته الفكرية المعهودة، بتشريح الفضاء الإمبريالي وتقويضه من أخطر زاويةٍ يُمْكن من خلالها تناولُه: وهي زاوية العلاقة مع الثقافة. فلقد أُشبعت الإمبرياليةُ بحثاً على المستويات والنتائج الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، في حين بقيت العلاقةُ الوشيجة مع الثقافة مغيَّبةً ومعتمةً، خاصة في الدوائر الأكاديمية الغربية. وهو أمر سيبدو ذا دلالة خطيرة وهامة. فبالرغم من انسحاب الإمبريالية وحالة الجزر التي أصابتها بعد الحرب العالمية الثانية، بقيتْ مفاعيلُها الثقافية مستمرةً حتى هذه اللحظة، تتنامى وتتعالق مع الظروف المستجدة. ومن هنا تأتي أهمية الكتاب: فالمعرفة التي يقدِّمها عن هذه العلاقة تتضمن عنصرَ اختراقٍ وتجاوزٍ وحدٍّ من إمكانيات التنامي؛ وبقدرِ ما ينهل هذا الكتابُ من مكتبةٍ كاملةٍ من الدراسات حول الإمبريالية فإنّه يؤسّس لمكتبة كاملة من الدراسات المضادّة للإمبريالية. وأهميته لا تنبع من معطيات ناجزة ونهائية بل من خلال فتحه البابَ على مصراعيه أمام دراساتٍ جديدة تبحث في الحقل الإمبريالي وتفككه. وهذا الكلام ينطبق بشكل أو بآخر على **الاستشراق** الذي استطاع من خلاله إدوارد سعيد تقويضَ المؤسسة الاستشراقية بإعادتها إلى عواملها الأولية، مؤسِّساً مرجعيةً هامةً لكثير من الباحثين في هذا المجال.

إنّ ما أنجزته الإمبرياليةُ من احتلالات لفضاءاتٍ أصلانية، وما قامت به من تحويلٍ في بنيةِ هذه الفضاءات، ما كان ليتم لولا الدّعم الثقافي لها. فمن غير الكافي لاحتلال أرضٍ غريبةٍ وجديدة أن تُرسِل الإمبرياليةُ جيشاً، مهما كان قوياً، من دون أن تسبق ذلك خطواتٌ ضروريةٌ هي بمثابة التقديم المنطقي لعمل عسكري: خطواتٌ تتعلق بدراسة الجغرافية المرصودة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً، وبتفكيك منظومة التمثيلات الخاصة الأصلانية، واستدماجها في منظومةٍ تمثيليةٍ جديدة تنوب عن الأصلاني وتعيد إنتاجَه وتصبّه في قالب جديد مختلف تماماً عنه، ومن ثم ضخّها ـ أي المنظومة ـ في مخيلةِ الشعبِ المستعمِرِ بهدف إقناعه بأنّ احتلال أراضي الغير إنما هو جزءٌ من منظومته الأخلاقية الخاصة ولا يتعارض معها بأيّ شكل من الأشكال... وهو ما سيؤدي في أسوإِ الأحوال إلى كسب حياده ونفي مقاومته لحكومته، إنْ لم يؤدِّ إلى كسب اندفاعه وتقدمه باتجاه أراضي الغير باعتبارها جزءاً من أراضيه أو امتداداً لها؛ وهو ما أسماه ريموند وليامز «خلق بُنى شعورية»، وهو أيضاً ما يشير إليه المؤرخ فيلدهاوس بقوله بحسب ادوارد سعيد: «لقد كان أساس السلطة الإمبريالية الموقفَ الذهنيّ للمستعمِر. فلقد أعطى قبولُه للإخضاع ـ سواء أكان ذلك بسبب شعور إيجابي بالمصلحة المشتركة بينه وبين الدولة الأم، أم بسبب

* ـ إدوارد سعيد: **الثقافة والإمبريالية**، ترجمة وتقديم: كمال أبو ديب (بيروت: دار الآداب، ط ٢، ١٩٩٨).

عجزه عن تصور أيّ بديل ـ الامبراطوريةَ الصلابةَ وقابليةَ الاستمرار» (ص ٨٢). وليس بمستغربٍ أن تكون طلائعُ المكتشفين والمغامرين والرحّالة والبعثات التبشيرية ورجال الدين هي بداية انتهاك الجغرافية وقبض المكان، وفيها وقف الجنديُّ المدجَّجُ بالسلاح جنباً إلى جنب مع الإداري والمستوطن، فتشكلتْ سلطةٌ شاملةٌ استطاعتْ إقصاءَ الفضاء الأصلاني وطمسَه وفرضَ فضائها الخاص المحتلّ له وبالنيابة عنه. وقطع الأوروبي شوطاً هائلاً في درجة إخضاعه أراضيَ الغير، حتى توصّل في أواخر القرن التاسع عشر إلى عدد وفير من الخيارات وترتكز جميعُها «إلى مقدمة منطقية هي إخضاع الأصلاني والتنكيل والتضحية به» (ص ١٩٥). ويمكن تلخيص هذه الخيارات بما يلي:

١ ـ «المتعة الذاهلة عن نفسها» والتي تمنحها رحلاتُ الاستكشاف وأدبياتُ الرحّالة والمغامرين واستدرارُ الأموالُ من التجارة، والبعثاتُ العلمية، وخلقُ كوادر استعمارية متخصصة في حكم المستعمرات.

٢ ـ تمثيل الأصلاني على أنه بحاجة إلى أن يُحكم ويُدار، وهو ما يقتضي أسلوباً في الحكم تنوُّعَ بحسب المناطق الحواضرية ـ ديكارتية فرنسية؛ تجريبية إنكليزية؛ أفلاطونية بلجيكية ـ وتدرَّس هذه الأساليب في مناهج الجامعات والكليات وتُلْمَس من خلال النخب الأصلانية التي تم خلقها وتوظيفُها بالشكل الملائم.

٣ ـ «رسالة الغرب التحضيرية».

٤ ـ تشكيل الثقافة كصمام أمانٍ كتيمٍ يَمْنع عن المستعمرِ الصورةَ الحقيقيةَ لما يَرتكبه من عنف، ويصوّره عملاً واجباً ضد متمردين خارجين عن القانون.

٥ ـ إعادة كتابة تاريخ الأصلانيين، وفيها تُستخدم السرديةُ لحجب العنف عن طريق ارتداء قناع الفضول والبحث عن الغرائبي.

*

كيف استطاعت الإمبريالية، بما هي «انتهاكٌ للجغرافية»، اكتسابَ هذا الزخم والاندفاع الهائلين في التنطّح لاحتلال مساحات شاسعة من أراضي الغير؟

هل يُمْكن أن تكون للثقافة المقدرةُ الفعلية على تعزيز الإمبريالية؟ وكيف اكتسبتْ مكانتها النسغية في الوعاء الحيوي للإمبريالية ذاتها؟

إنّ امكانية فهم ذلك ينطلق من تصورٍ منفتح لدور الثقافة في أيّ عملية مجتمعية تحوّلية كبرى. هذا الدور البطيء الإيقاع، ولكن الفعّال ـ والفعّال جداً ـ على المدى الطويل، هو ما أثبتته التجربةُ الإمبريالية نفسُها. وقد رأى غرامشي أنّ «الثقافة لا تعاينَ كحقيقة مباشرة بل من منظور الأبدية»، وأنّ خلق تشكيلات ثقافية جديدة يتطلب زمناً طويلاً يعمل خلاله المثقفون والمفكرون بجهد دائب. ولا يمكن بالتالي عزلُ الثقافة أو الأعمالِ الأدبية عن السياق السياسي والاقتصادي السائد بحجة اعتباراتٍ جمالاتية تعزلها عنه وتجعلها خارج أي تنفيذ معرفي. يقول سعيد في هذا الصدد: «يبدو أنّ هذه العادات يوجِّهها مفهومٌ قوي لكنه يفتقر إلى الدقة، فحواه أنّ الأعمال الأدبية تملك استقلالاً ذاتياً، بينما يقوم الأدبُ نفسه(...) باستمرار بالإشارة إلى نفسه بوصفه بشكلٍ مّا منخرطاً في التوسع الأوروبي ما وراء البحار، خالقاً بذلك ما يسميه وليمز «بنى من المشاعر» تدعم، وتعزِّز، وتُحْكِم وتُرْهِف ممارسةَ الإمبراطورية» (ص ٨٤).

ويتوضح ذلك جلياً من خلال القراءة السعيدية لروايات كونراد وكيپلنغ وأوستن وكامو ومَغْنَاة «عائدة» للإيطالي ڤيردي.

فكونراد في رواية **قلب الظلام** طلع بأحداثه وشخصياته من مكتبةٍ ضخمةٍ من «الأفريقانية»، واستفاد من مخزونٍ ضخم من المأثورات الشعبية والكتابات عن أفريقيا التي تفاعلتْ وامتزجتْ لتعطي نصاً روائياً هو **قلب الظلام**، الذي لا يعكس افريقيا الحقيقيةَ كما يتبادر إلى الذهن وإنما يعكس افريقيا «مُسيسةً ومشبعةً عقائدياً». وبهذه الصورة لا تصبح الروايةُ مجردَ أدبٍ، بل تغدو جزءاً من اندفاعٍ إمبريالي باتجاه افريقيا.

وأما رواية كيپلنغ الشهيرة **كيم** فتدور أحداثُها في الهند، ولكنها تعكس هنداً أخرى غير الهند الحقيقية؛ وهي هند كيپلنغ البريطانية التي اختار لها صورةً لمكان سرمدي، لامتغيرٍ، جوهرانيّ. فلقد «تم خلق هندٍ من توليد الخيال، لا تحتوي على أيّ عنصرٍ من عناصر التغيير الاجتماعي أو التهديد السياسي. وكانت الشرقنةُ نتيجةَ هذا الجهد المبذول لتصوُّر المجتمع الهندي خالياً من العناصر المعادية لاستمرار الحكم البريطاني وإدامته. ذلك أنّه على أساسٍ من هذه الهند الافتراضية جَهدَ المشرِّقنون لتأسيس حكم أبدي» (ص ٢١١). ويعتبر سعيد أنّ **كيم** «إسهامٌ رئيسي في <صياغة> هذه الهند المُشرقَنَة التي ولّدها الخيالُ، كما هي إسهامٌ رئيسيٌّ في ما أصبح بعضُ المؤرخين يسمونه 'اختراع التراث'». (ص ٢١١).

وأما قراءة سعيد لكامو فتُسْتَشَفُّ ملامحُها باختصار من خلال الاقتباس الطويل التالي: «إنّ كلتا **الغريب والطاعون** تدوران حول موتِ عربيٍ، وهو موت يُبرز ويُفعِم بصمتٍ مصاعبَ الضمير والتأمل التي تعانيها الشخصياتُ الروائية الفرنسية. وعلاوةً، فإنّ بقية المجتمع المدني التي تُقدَّم بنصاعةٍ بارزة ـ بلدية المدينة، الجهاز القضائي، المستشفيات، المطاعم، النوادي، أماكن التسلية ووسائلها، المدارس ـ هي بنية فرنسية، رغم أنها بشكل غالب تقوم بإدارة <شؤون> السكّان غير الفرنسيين. وإنّ التطابق بين الطريقة التي يَكْتب بها كامو عن ذلك كله وبين كيفية تصوير الكتب المدرسية الفرنسية إيّاه لتَطابُقٌ آسر: فالروايات والقصص القصيرة تروي نتيجة انتصارٍ تحقّق ضد شعب مسلم محيّد

لم تُرسِ الدولُ المستقلّة حديثاً مفاهيمَ جديدةً للثقافة والمجتمع والقومية مغايرةً لتلك التي كانت قد بَنتها حركاتُ الاستقلال

ممزَّقٍ اغتُصِبتْ حقوقُهُ في امتلاك أرضه اغتصاباً حاداً. وكامو، بتأكيده وتعزيزه بهذه الطريقة للأولوية الفرنسية، لا يُشكِّك ولا يَخْرج على الحملة من أجل السيادة التي شُنَّت ضد مسلمي الجزائر لما ينوف على مائة عام» (ص ٢٤٠).

إنّ قراءة إدوارد سعيد هي جزء مما أسماه «القراءة الطباقية» contrapuntal، وهو مصطلح موسيقي يعني «الاستعمال المتزامن لِلَحْنَيْن أو أكثر لإنتاج المعنى الموسيقي، بما يسمح بالقول عن أحد الألحان إنّه النقطة المضادة لـ، أو في حالة تضاد مع، لَحْن آخر» (من مقدمة المترجم ص ٢٠ نقلاً عن قاموس Penguin الجديد للموسيقى). وهذه القراءة تأخذ في اعتبارها العمليةَ الإمبريالية وعمليةَ المقاومة كذلك، وتبحث عن المُبْعَد والمُقْصى من العملية الإمبريالية وإضاءته وتوسيعِ مداه ليحتل مكانه الملائم ويُفصح عن ذاته.

*

ابتكرت الثقافةُ الغربية المسيطرةُ إنشاءً مُبْتنًى من علاقتها مع الأصلاني، وقد افترضتْ فيه صمتَ هذا الأخير، فبررَّت استعبادَهُ وتعيين وجوده كتابعٍ صامتٍ مَخْذول. وبدا ذلك واضحاً في أوج قوة الامبرياليّة. ولكنّ بعد الحرب العالمية الثانية، ومع حصول عشرات الدول على استقلالها حديثاً، لم يحافظْ إنشاءُ الثقافة الغربية المسيطر على ولاء الأصلاني وصمته المطلقَيْن كما أرادتْ له. ذلك أنّ إنشاءً خاصاً بالمستعمَرين [بفتح للميم] بدأ يظهر وبقوة، فارضاً نفسه على الساحة العالمية، بالرغم من التجاهل الذي قوبل به من قِبل المثقفين الحواضريين. وتلي لحظةَ ولادة الإنشاء الأصلاني المقاوِم لحظتان هامتان ومفصليتان في تاريخ الفكر الأوروبي: الأولى هي «إعادة اكتشاف اليونان إبّان المرحلة الإنسانية لعصر النهضة الأوروبي»، والثانية هي «إبداع الكنوز الشرقية ـ الفلسفات الصينية الهندية، الفارسية، الإسلامية ـ في قلب الثقافة الأوروبية» وذلك بحسب شقاب.

وأهميةُ لحظة الإنشاء المقاوِم هي في أصوات أصحابه التي تطالب الغربيين بمواجهة أنفسهم بوصفهم مرتكبي جرائم عنفٍ وقمعٍ واضطهادٍ في البلدان التي استعمروها. وتميُّزها عن المعارضات والثورات السابقة لها يتمثل في أنها جابهتِ الامبراطوريةَ من حيث «هي غربٌ»، فقامت بإعادة تأويلٍ «لحرّاس خيال العالم الجديد» (روبنسون كروزو، جون سميث، يوكا هونتاس...). ويعتبر سعيد أنّ وعي الانتماء إلى شعب مستعمَر هو «التبصّر التأسيسي النفّاذ للقومية المناهضة للامبريالية» والذي على أساسه تتحد الانتفاضاتُ والتمرداتُ التي قامت في الماضي ضد المستعمِر، لتكون أرضيةَ مجتمعٍ يرسِّخ المقاومة ضد الإمبريالية في الحقل الثقافي. وهناك ـ بحسب سعيد ـ ثلاثة مواضيع عظيمة في المقاومة الثقافية «المفككة للاستعمار» مرتبطة فيما بينها بشكل متين.

الأوّل هو النظرة إلى تاريخ المجتمع المستعمَر بشكل شموليٍ ككلٍّ واحد، وبصورة متكاملة، فيه من الاستعادة والترميم بقدر ما فيه من الولادة والبناء. وينبثق الدور المركزي للّغة القومية في هذه الولادة بتفعيل الممارسة الثقافية القومية من خلال دورها في «تنظيم الذاكرة الجماعية وتعزيزها»، فتُكتب الرواياتُ والقصصُ والأشعارُ والسيرُ الذاتية التي تمثِّل «حركةً طباقية لتواريخ القوى الغربية الشاهقة، ولإنشاءاتها الرسمية، ولوجهة نظرها الكليةِ الرؤيةِ شبهِ العلمية».

والموضوع **الثاني** هو أنّ المقاومة لَيست ردّةَ فعلٍ ضد الإمبريالية ـ ففي هذا اختزال كبير ومجحف بحقها ـ بل هي «نهجٌ بديل في تصور التاريخ البشري» يمتلك القدرةَ والفعّاليةَ على إزالة الحواجز المشيّدة بين الثقافات. وتمثِّل رواية سلمان رشدي **أطفال منتصف الليل** مثالاً حياً على محاولة اختراق الإنشاء الغربي والتفاعل معه وتحويله، بحيث يعترف بتواريخ مقصيّةٍ ومقموعةٍ لشعوب مستعمَرة.

الموضوع **الثالث** يتعلق بتناول القومية من وجهة نظر إنسانية رحبة، بعيداً عن جمودِها في قوالب نهائية، وانقطاعِها عن التفاعل مع التاريخ الإنساني ككل. واعتبر العديدُ من المفكرين الغربيين أنّ الظهورات القومية واشتداد عودها في البلدان المستعمَرة، وخاصةً إبان «مرحلة فكفكة الاستعمار»، غريبة عن مجتمعاتها و«روحيةِ قيمها الجمعية». وهذا الرأي ـ بحسب ادوارد سعيد ـ يتأتّى من معارضة ثقافية لديهم لا تعطي القومية ما سبق أن أعطته للغربيين من حق، على اعتبار أنّ الفكرة القومية كما ظهرتْ في الغرب هي حَكْرٌ على الغربي وحده دون غيره، وبذلك تناسى أولئك المفكرون الغربيون أنّ «تاريخ الثقافات جميعاً هو تاريخ من الاستعارات الثقافية، والثقافات ليست كتيمةً غير مُنْفِذة» (ص ٢٧٥).

والاعتراف بأهمية القومية في مرحلة مقاومة الاستعمار يجب ألا ينسينا أمراً أخر قد يكون أكثر أهمية، ويتعلق بإرساء مفاهيم وتصورات جديدة للثقافة والمجتمع بعد نيل

الاستقلال «من أجل أن تُتَجنَّب السُّنَنيّات والممارسة الظالمة القديمة». ولكن هل تمكنت الدولُ المستقلة حديثاً من إرساء مفاهيم جديدة للثقافة والمجتمع؟ وهل استطاعت فك الارتباط مع الفكرة القومية بالشكل الذي كانت عليه إبان مرحلة فكفكة الاستعمار؟

من معاينة واقع الدول المستقلة حديثاً نجد جواباً بالنفي قاطعاً. ذلك أنّ الدولة المستقلة قد تمسكتْ بالهوية القومية تمسُّكاً ضارياً، فأكّدتْ ـ إلى درجة الإملال ـ على مشروعيتها ونبل أهدافها وتساميها لتحقيق الأفضل لشعوبها، بل راحت تمرّر مشاريع لابتلاع المعارضة وقصم ظهر المجتمع المدني وعسكرةِ البلاد «وتطهيرِ كلّ هذه الآثام» في مَطْهر الهوية القومية. وهكذا حلّت النخبُ القومية الجديدةُ الحاكمةُ محلَّ النخب الاستعمارية الآفلة لتؤدي الدور التخريبي نفسَه، وليكون لها الموقعُ عينُه، المتمثِّلُ في استعداء رعاياها ونقمتهم عليها. ولم يكن هذا مفاجئاً تماماً: فتحليلات فرانتز فانون الثاقبة والمدهشة في كتابه **معذبو الأرض** استطاعت التنبؤَ بأنّ الدولة المستقلة حديثاً لن تحوِّل وعي نخبتها القومي في الدولة المستقلة إلى وعي اجتماعي، واعتبر أنّ المستقبل عند هذه الدرجة «لن يأتي بالتحرير، بل بامتدادٍ للإمبريالية»... وهو ما حدث تماماً!

ووعي فانون، ومن بعده ادوارد سعيد، لمخاطر الهوية القومية الثابتة نابعٌ أساساً من الوعي بشمولية الإمبريالية نفسها وطابعها الكلي في مواجهتها للأصلانيين. وهو ما يقتضي استخطاطيةً (استراتجيةً) تحريرية مقاومة شاملة أيضاً يمثِّل التمركزُ الهويّاتي (نسبةً إلى هوية) القوميُّ الثابتُ عقبةً أمامها و«شَرْكاً» تحويلياً لدورها من مقاومةٍ للإمبريالية إلى استمراريةٍ «أصلانيةٍ» لها.

*

يُفْرد ادوارد سعيد للإمبريالية الأميركية فصلاً خاصاً باعتبارها الوريثةَ الشرعيةَ للإمبريالية الفرنسية والبريطانية، بالرغم من رفضها الاعترافَ بذلك حفاظاً على صيغةٍ أخلاقيةٍ أرادت بها وسمَ جميع احتلالاتها وتدخلاتها العسكرية في بلدان العالم قاطبةً ـ وهي احتلالاتٌ وتدخلاتٌ وصلتْ إلى معدّلِ واحدٍ منها كلَّ عامٍ في أحد بلدان العالم الثالث في الفترة الواقعة بين ١٩٤٩ و١٩٦٧ (عام توقف الإحصاء). وقد أدى ذلك إلى تماسك الموقف الشعبي الداخلي [في المستعمرات] من الحروب الأميركية في الخارج وسياساتها الخارجية التي صاغها رجالُ فكر وسياسة أميركيون خلقوا مفاهيم مثل مفهوم «المسؤولية العالمية» لتبرير تصرفات الولايات المتحدة، الأمر الذي رشح عنه شعورُ المواطن الأميركي بأخلاقية الدور الذي تلعبه بلاده في

هاجس «سعيد» هو فتح الباب أمام المذاهب والثقافات لتتثاقف وتبتعدَ عن «الجواهر» والفضاءات المغلقة

دول العالم الثالث «تصحيحاً» لأخطاء الآخرين في بلادهم نفسها... وهو ما أسماه تشومسكي «صناعة الإذعان». وأدّتْ وسائل الإعلام دوراً في خلق عداوة بين الشعب الأميركي والآخر، الذي صوَّرته عدواً يهدِّد أمنَ الولايات المتحدة، عدواً يغيب دوماً عن الشاشة بوجهه الحقيقي ويحضر أبداً بالوجه المُراد له، عدواً لا يتم تجاوزه ولا يراد تجاوزه أصلاً لأنّ الاستهداف الإعلامي الأميركي هنا ذو طبيعة مزدوجة: استهدافٌ للعدو المفترَض أولاً، واستهدافٌ لأفراد الشعب الأميركي نفسه ثانياً. فالعملية، إذن، ذات طابع إخضاعي للداخل قبل الخارج: «والمفارقة اللاذعة هي أنّ هذا المحرّك الحيوي، بدلاً من أن يمنح الروحيةَ الغربيةَ الثقةَ بالنفس والشعورَ بـ 'السوانية'<الطبيعية> الآمنة اللذين يرتبطان في أذهاننا بـ <امتلاك> الامتيازات والاستقامة، ينفحـ'نا' [أي الغربيين] بغضبٍ وروحٍ استدفاعيةٍ حقانيَّيْن يبدو من خلالها 'الآخرون' في النهاية أعداء عاقدي العزم على تدمير حضارتنا ونهجنا في الحياة» (ص ٣٦٧).

وستبقى حربُ الخليج (١٩٩٠ ـ ١٩٩١)، ولفترةٍ طويلة قادمةٍ، ميداناً خصباً وغنياً بالدلالات لتحليلاتٍ سياسيةٍ واجتماعية وثقافية ومعرفية، لكون هذه الحرب التمثيلَ الأشدَّ قتامةً للإمبريالية الأميركية في تعاطيها مع شؤون العالم الخارجي وانعكاسه الداخلي (داخل الولايات المتحدة) ودور الإعلام في تنصيع صورةٍ كالحةٍ من صور القتل والتدمير وخلقِ القبول الأخلاقي لدى المواطن الأميركي بشرعيةِ تدخُّل بلاده في البلاد الأخرى وشرعيةِ حروبها فيها. فقد قُدِّمتْ هذه الحربُ على أنها «تمرينٌ في لعبة خالية من الألم» يكون الجنود الأميركيون فيها أبرياء وأنقياء تماماً. ولم يتساءل أحد عن صدقية ما يراه، بالرغم من أنّ هذه الحرب: «لقيتْ أكبر تغطيةٍ وأدنى قدرٍ من التقارير الإخبارية التي عرفتها حربٌ في التاريخ. كانت الصور والكلماتُ خاضعةً لتحكُّم الحكومة بها، وقامت وسائلُ الإعلام الأميركية الكبرى بنسخ بعضها بعضاً، ثم تم نسخُها هي بدورها وعرضُها على مدى العالم (كما كانت الحال بالنسبة إلى سي. أن. أن) ولم يولَ قدرٌ من الاهتمام يستحق الذكر للدمار الذي أُنزل بالعدو» (ص ٣٩٩). والعراق ـ العدو المفترض ـ بثقافته وشعبه وتاريخه، والغائبُ تماماً عن الصورة الإعلامية الغربية، حضر بعد آب ١٩٩٠ حضوراً طاغياً بسيلٍ من الكتب والبرامج واللقاءات التي تمحورتْ كلُّها حول صورةٍ محددةٍ

وأحاديةٍ للعراق هي صورةُ «تسدّ الحاجة <الإمبريالية> إلى تمثيل بلدٍ تمثيلاً لامؤنْسناً، لا تاريخياً، وإبليسياً كتجسيدٍ لهتلر عربيٍ» (ص ٣٦٠).

*

ويدعونا إدوارد سعيد إلى البحث عن الأسباب التي أوجدتْ نوعاً من الحراسة التي قام بها الغرب على «رأس المال النظري المناصر للحرية» ومَنَعَ البلدانَ المستعمرة من الاستفادة منه في خلق ثقافة تحريرية قومية «وإن لم ينجحْ في ذلك تماماً». ويبدو جوابُ ذلك في قدرة النظام العالمي (الغرب) على طيّ العالم تحت جناحه، وشَرْخ أشد أرضياته تماسكاً في عمليةٍ هي الأعتى في تاريخ الإمبريالية، حتى ليكاد يقرر أحلامَ الأفراد أنفسهم. فقد استطاع النظام العالمي إنتاجَ ثوراتٍ وحركاتٍ مضادةٍ له في العالم المستعمَر وتوجيهها بما يتناسب مع حاجاته، أي أنه مَلَكَ مفتاح الولاء والمعارضة له: «إنّ هذا النظام العالمي، الذي يُنتج الثقافةَ والاقتصادَ، والقوةَ السياسية جنباً إلى جنب مع معاملاتها العسكرية والسكانية، ويفصح عنها جميعها، لَيَملك ميلاً مُمأسساً إلى إنتاج صورٍ عبر - قوميةٍ خارجةٍ على المقياس تمارس الآن إعادة توجيهِ الإنشاء الاجتماعي والعملية الاجتماعية العالمية لكليهما(...). وهكذا يقوم المسلمون، أو الأفارقة، أو الهنود، أو اليابانيون، بعباراتهم الجاهزة الخاصة، ومن داخل أمكنتهم المحلية المهدَّدة، بمهاجمة الغرب، أو الأمركة، أو الإمبريالية بقدرٍ لا يربو من العناية بالتفاصيل والتفريق النقدي والتمييز والامتياز على ما كان قد أسبغه الغربُ عليهم. والأمر ذاته ينطبق على الأمريكيين، الذين تقارب الحميةُ الوطنيةُ بالنسبة إليهم درجةَ الألوهية» (ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

ولذلك سيبقى هاجسَ إدوارد سعيد فتحُ الباب عريضاً أمام المذاهب والثقافات لتنفتح بعضُها على بعضٍ وتتثاقف فيما بينها، مبتعدةً قدر الإمكان عن «الجواهر» والفضاءات المغلقة؛ فلا أحد يملك الحقيقة أو يطولها، والدرب إلى الحقيقة دروبٌ، والتواريخُ جميعها إنّما صَنَعها الإنسانُ بنفسه ولنفسه، وبالتالي فهي قابلة لأن تُعرف وتُكْتَنَه، فتنبسط المتاريس وتصمت المدافع: «عبر هذا الكتاب كله، ما زلت أردِّد أنّ التجربة الإنسانية منسوجةٌ بدقةٍ، وأنّها مكثفة، وقابلة لأن تُبْلَغَ إلى درجة تُغْنيها عن وكالات زا - تاريخية أو زا - دينوية [أي خارجة عن التاريخ والعالم] لإضاءتها وإيضاحها. وأنا أتحدث عن طريقةٍ لاعتبار عالمنا قابلاً بسلاسةٍ للاكتناه والاستنطاق، دون مفاتيح سحرية، أو معاظلات مصطلحية، أو أدوات خاصة، أو ممارسات محجّبة» (ص ٣٦٨).

ولكنّ الممارسات الثقافية الحالية بعيدة كلَّ البعد عن ذلك، إذ تحاول فكَّ الارتباط التعسفي والقسري للتراث اليهوسيحي والغربي عموماً مع الثقافة الأصلانية، بطمس الأخيرة وتغييبها عبر عملٍ منهجي، أُطلق عليه اسمُ «اختراع التراث». وعلى أساس هذا العمل تمّ فصمُ العلاقة التي تربط الثقافة اليونانية بجذورها المصرية والمشرقية عموماً، وتم التغاضي عن قيام الصليبيين بأكل لحوم بشرِ الشعوب التي اجتاحوها (وهو أمر أقرّته الحوليات التي كُتِبَتْ أثناء الحملات الصليبية ولكنْ عُتّم عليه في القرن التاسع عشر وما بعده)، ناهيك عن إبادة البيض لثقافةِ الهنودِ الحمر الأصلانيين في أمريكا بعد أن أبادوهم جسدياً. وتعترض هذه الممارساتُ الثقافية على دخول الدراسات الماركسية، والأنثوية، والبنيوية، ودراسات العالم الثالث إلى مناهج التدريس الجامعية لكونها «مخرِّبةً» لعقول الطلبة البيض. ولكنّ أصحاب هذه الممارسات الإقصائية فاتهم أنّ المؤسسة الأكاديمية، بقبولها هذه الدراسات واستدخالها إلى مناهجها، إنّما احتوتْها وسلَخَتْها عن سياقاتها الطبيعية. وتصبح التخصصاتُ في العلوم النفسية والاجتماعية والسياسية مادةً مربحةً لأصحابها في أوقات الأزمات التي تنفجر باصطدام الولايات المتحدة مع بلد أجنبي، فيحتل خبراءُ الشرق الأوسط أو افريقيا أو الهند الصينية أماكنَ الصدارة في وسائل الإعلام والمؤسسات الأكاديمية ليغذّوا الشعبَ العاديَّ بسرديات شبه رسمية، شبهِ مقدسةٍ، متمركزةٍ حول ذاتها، تعقد الوشائجَ العميقةَ بين التاريخ والمخيلة وتنفي إمكانيةَ وجودِ واقعٍ خارجها، وتزيد من صلابة «الجوهر» ومن العتمة المنسوجة حول الآخرين بتعمية الذات، وتأخذ صفة الحقيقة التاريخية التي لا يطولها مساسٌ.

*

وأخيراً فإنّ الأسى الشفيف الذي يخيِّم على الكتاب - بسبب انعدام التكافؤ والنِّدِّيَّة بين طغيانية الإمبريالية واكتساحها الشامل لجوانب الحياة الإنسانية، وبين المقاومة والتمسك بأبجديات التفاهم الإنساني التي تغيب شيئاً فشيئاً كقرص الشمس العائم على البحر - ... أقول إنّ هذا الأسى لن يجد خاتمة أكثر تعبيريةً في كتاب «سعيد» من حديث الارتحال والهجرات والمنافي. وادوارد سعيد، في حديثه، يُسمع صوتَه الداخليَّ عميقاً طالعاً من أعماق منفيٍّ عاش حياةً طويلةً في بلاد تتباين حرارتُها انخفاضاً وارتفاعاً لتصهر في أتونها القادمين من بلاد بعيدة. ولكنه - إذ عاف الوصول، وحطّم المرساة، ونأى بنفسه عن الانصهار، وابتعد بالبلاد عن متعة الاحتفال بوأده حياً تحت أطمار الحنين - قد ارتضى التيه مقاماً وأسلس للروح القيادَ؛ فلا البرُّ نجاةٌ ولا البحرُ اغترابٌ. وكأنّي بالمؤلّف يرجّع قول سانت فكتور: «ذو الروح الحنونة هو الذي يركِّز حبه في مكان واحد من العالم، والرجل القوي هو الذي يشمل بحبه كلَّ الأماكن، وأما الرجل الكامل فهو الذي أطفأ جذوة حبه»!

حماه